جامـعة بنـــغازي
مجلة العلوم والدراسات الإنسانية – المرج
مجلة علمية الكترونية محكمة
رقم الإيداع بدار الكتب الوطنية 284 / 2014 ISSN : 2312 – 4962

تطور علوم اللغة العربية وآدابها في الأندلس إبان القرن الخامس الهجري ابن حزم وابن سيده أنموذجاً

د ـ عادل عبدالعزيز غيث الحسنوني

تمهيد:

اهتم أهل الأندلس بكتب اللغة العربية، فكان أول ما اشتهر عندهم من كتب المشارقة في النحو "كتاب سيبويه في النحو" و "مختصر النحو" للإمام النحوي أبي الحسن علي بن حمزة الكسائي (ت سنة 197هـ/712م)، وذلك لارتباطها بالعلوم الشرعية من قراءات وتفسير وفقه وحديث، كما أن الأندلسيين كانوا حريصين على استقامة ألفاظهم وخلوها من اللحن، ولهذا نجد أن علم النحو احتل مكانة عظيمة في نفوسهم فحفظوا قواعده وفهموا معانيه.

لقد تبوأ علماء اللغة والنحو مكانة سامية في المجتمع الأندلسي إبان عصري الإمارة والخلافة، فهم اللذين يُعوّل عليهم في تأديب الناشئة وتعليمهم قواعد العربية، لذلك نجد أن الطبقة الحاكمة من الأمراء والخلفاء اهتموا بهذه الفئة اهتماماً خاصاً، وحرصوا على تقريبهم والاعتماد عليهم في تنشئة أبنائهم نشأة علمية سليمة، ويلاحظ ذلك من خلال الاطلاع على تراجم النحويين واللغويين التي تؤكد على اشتغال الكثير منهم بتأديب أبناء الأمراء والخلفاء وغيرهم من أفراد المجتمع الأندلسي.

ومع بداية عصر الطوائف ـ وهو القرن الخامس الهجري موضوع البحث ـ ازدهرت الحركة اللغوية والأدبية في الأندلس، ساعد على ذلك حرص ملوك الطوائف واهتمامهم بالحركة اللغوية ومتابعة كل واحد منهم على أن يجمع حوله أكبر عدد من الأدباء والشعراء، والأهم من ذلك أن عصر الطوائف كان ثمرة ما سبقه من عصور، فهو بحق عصر انطلاق الفكر وازدهاره، فنمت العلوم، وكثر المشتغلون بها ؛ بما في ذلك علوم اللغة العربية ، ومن بين المشتغلين بهذا العلم علمين كبيرين من أعلام اللغة العربية وهما الإمام البحر ابن حزم الظاهري رحمه الله، وامام اللغة العربية في عصره ابن سيده الأندلسي وسأخصهم بشئ من التفصيل في هذا البحث للتعرف على جهودهم العلمية وآثارهم اللغوية والأدبية ومدى إسهامهم في تطور الدراسات اللغوية في بلاد الأندلس ذلك الوقت شرحاً وتدريساً واختصاراً ، متبعاً في ذلك المنهج التاريخي السردي الوصفي للوصول إلى النتائج المرجوه من البحث وهو التعرف على الإنتاج العلمي الزاخر لهؤلاء العلماء في مجال علوم اللغة العربية وآدابها في بلاد الأندلس ذلك الوقت والتي طال تأثيرها كل العالم الإسلامي إلى وقتنا الحاضر وذلك من خلال آثارهم اللغوية المطبوعة والمخطوطة التي تزخر بها مكاتبنا الخاصة والعامة.

جامعة بنغازي
مجلة العلوم والدراسات الإنسانية – المرج
مجلة علمية الكترونية محكمة
رقم الإيداع بدار الكتب الوطنية 284 / 2014 ISSN : 2312 – 4962

1 - ابن حزم الظاهري:

هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد، الفارسي الأصل[1]، ثم الأندلسي القرطبي اليزيدي، كان جده يزيد مولى للأمير يزيد بن أبي سفيان الأموي، فهو قرشي بالولاء فارس الجنس، وجده خلف بن معدان هو الذي دخل إلى الأندلس مع نفر من أصحاب عبدالرحمن الداخل.

وأما عن مولده؛ فقد ذكر ابن حزم نفسه تاريخ ومكان ميلاده في رسالة بعث بها إلى تلميذه القاضي صاعد الأندلسي نقلها صاحب معجم الأدباء كتب له فيها: ولدت بقرطبة في الجانب الشرقي من ربض منيه المغيرة قبل طلوع الشمس وبعد سلام الإمام من صلاة الصبح، آخر ليلة الأربعاء، آخر يوم من شهر رمضان المعظم[2].

نشأ ابن حزم منذ ولادته في مدينة قرطبة العريقة في عز وجاه، وذلك بسبب المكانة المرموقة التي تتمتع بها أسرته في المجتمع الأندلسي، فوالده – كما سبق ذكره– كان من وزراء المنصور بن أبي عامر، ومن وجوه قرطبة وأعيانها، ومن أهل العلم والأدب والبلاغة فيها، اشتهر بثرائه وغناه حتى أنه يملك أحسن الدور والقصور التي تتوسط بساتين قرطبة، فنشأ ابن حزم في هذه البيئة تكتنفه مظاهر الترف والعيش المنعم وتأسره مغريات الجمال وسط عائلة تنتمي إلى طبقة أولى السلطة والجاه والنفوذ، فاهتم به والده منذ صباه وعهد به إلى النساء في قصره ليقمن بتربيته وتعليمه، فكنَّ أول من علمنه مبادئ العلوم والقرآن والشعر والأدب [3]، ثم بعد ذلك أصطحبه والده إلى حلق الحديث، وكان أول سماعه الحديث قبل سنة الأربعمائة من الهجرة كما يقول تلميذه الحميدي[4].

عاش ابن حزم أول عمره حياة صافية نقية لا يشوبها كدر وسط بيوت الأمراء والوزراء، ولكن ذلك العيش الهنئ وتلك السعادة الهادئة لم تستمر له ولأسرته المترفة، فسرعان ما تبدلت الأحوال وتغيرت الأمور عقب انتهاء حكم الأسرة العامرية سنة (399هـ/ 1008م)، وبداية عصر الفتنة، وما تلاه من استيلاء البربر على قرطبة وتنكيلهم بأهلها وذلك سنة (404هـ/1013م) ما اضطر ابن حزم وأسرته الخروج عن قرطبة متنقلاً من مدينة لأخرى، وفي ذلك يقول ابن حزم:"وضرب الدهر ضرباته وأجلينا عن منازلنا، وتغلب علينا جند البربر، فخرجت عن قرطبة أول المحرم عام أربع وأربعمائة" [5]، ثم عاد إلى قرطبة سنة (409هـ/1018م)، وتقلد مناصب الوزارة لمن تبقى من خلفاء بني أمية، وفي ذلك يقول ياقوت الحموي:"كان الفقيه أبو محمد وزيراً لعبد الرحمن المستظهر بالله بن هشام بن عبد الجبار بن عبدالرحمن الناصر لدين الله، ثم لهشام المعتد بالله بن محمد بن عبدالرحمن بن عبدالرحمن الناصر"[6].

---

(1) بعض المؤرخين يرجع أصله إلى أنه من أصل أسباني كابن حيان فيما ينقله عنه ياقوت الحموي في معجمه، وابن سعيد في كتابه المغرب، تبعهم في ذلك المستشرق دوزي فيما ينقله عنه آنخل بالنثيا، في حين رد هذا الرأي مؤرخون آخرون فقالوا أن أصوله فارسية كصاعد تلميذ ابن حزم، والمقري، وابن خلكان، والذهبي، والحنبلي في الشذرات، وأيد هذا الرأي المستشرق الكبير آسين بلا سيوس فيما ينقله عنه كذلك بالنثيا، وكثير من المؤرخين المعاصرين وهو ما اعتمدته في هذا البحث = انظر: ياقوت: معجم الأدباء، 4، ص1656؛ ابن سعيد: المغرب، 1، ص ص44-45؛ بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص213؛ صاعد: طبقات الأمم، ص97؛ المقري: نفح الطيب، 2، ص79؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، 3، ص325؛ الذهبي: السير، 13، ص373؛ الحنبلي: الشذرات، 3، ص299.

(2) ياقوت: معجم الأدباء، 4، ص1656.

(3) ابن حزم:طوق الحمامة في الألفة والألاف، ضمن مجموع رسائل ابن حزم،تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،ط2،بيروت،1987م،1، ص166.

(4) جذوة المقتبس،ص 449.

(5) طوق الحمامة، ص 170.

(6) معجم الأدباء، 4، ص1656.

جامعة بنغازي
مجلة العلوم والدراسات الإنسانية – المرج
مجلة علمية الكترونية محكمة
رقم الإيداع بدار الكتب الوطنية 284 / 2014 ISSN : 2312 – 4962

لم تدم وزارة ابن حزم للخليفة المعتد بالله آخر خلفاء بني أمية طويلاً إذا سرعان ما تركها وأقبل على طلب العلم، وكان ذلك آخر عهد له بالسياسة والوزارة.

برز **ابن حزم الظاهري** كإمامممن أئمة اللغة العربية في ميورقة أحدى جزر البليار فقد كان لنشأته الأولى، بين الجواري في قصر أبيه أثر عظيم في تكوين شخصيته الأدبية والشعرية، فهو يقول عن نفسه كما مر ذكره: "وهن علمنني القرآن ورويني كثيراً من الأشعار، ودربنني في الخط"[7]، فنشأ وله إلمام في النحو والأدب والقرآن، وأرخى لموهبته الأدبية العنان فصار ينظم الشعر ولمّا يبلغ الحلم بعد [8]. وفي ذلك يقول الذهبي: "مهر أولاً في الأدب والأخبار والشعر"[9].

بدأ كل شيء يبشر بأن ستكون كل جهود ابن حزم وحياته للأدب والشعر، ولكن ظروف بيئته السياسية والاجتماعية جعلت من ابن حزم ينحو منحاً آخر في ضروب العلم؛ ليجعل منه الذائد عن الشريعة وعلومها، والحامل للواء المذهب الظاهري التجديدي ليكون رجله الأوحد فلا يلحقه فيه لاحق، مستقلاً بعبء توطيده وحمايته، مثله في ذلك مثل سيبويه النحوي الذي أراد علم الحديث بداية طلبه للعلم فجاء إلى حمّاد بن سلمة لكتابة الحديث فاستملى منه قوله صلى الله عليه وسلم: "ليس من أصحابي إلا من لو شئت لأخذت عليه ليس أبوالدرداء"، فقرأ أبوالدرداء بالرفع ظاناً أنها اسم ليس، والصواب أن يقرأ: "ليس أبا الدرداء" فصاح به حماد: "لحنت يا سيبويه، إنما هذا استثناء"، فقال سيبويه: "والله لأطلبن علماً لا يلحنني به أحد" [10]، فلزم مجلس الخليل بن أحمد الفراهيدي إلى أن صار أبا النحو العربي لا ينازعه فيه منازع[11].

اهتم ابن حزم اهتماماً بالغاً باللغة العربية وعلومها وأخضع ألفاظها ومعانيها لمذهبه الظاهري، مركزاً على الألفاظ التي تدور معانيها بين أهل النظر، كألفاظ الحدود، والعلم والاعتقاد والبرهان والدليل والإقناع والصدق، والقياس، والعلة، وما إلى ذلك، لأن هذه الألفاظ أساس في المناظرة، وعدم الوضوح في تحديدها يورّط المتناظرين في اللجاج [12]، أي يقود إلى الخصومة وعدم البيان والوضوح في إقامة الحجة التي بنيت عليها المناظرة، لذا كان من طبيعة المذهب الظاهري أن يولي اللغة العربية ومدلولاتها المقام الأول من العناية وقد لخص ذلك ابن حزم في كتاب الفصل بقوله: "وحمل الكلام على ظاهره الذي وضع له في اللغة فرض لا يجوز تعديه إلا بنص، أو إجماع، لأن من فعل غير ذلك أفسد الحقائق كلها، والشرائع كلها، والمعقول كله"[13]، وبذلك يتضح بأن ابن حزم قد اتخذ من الظاهرية مذهباً فلسف به حياته وسلوكه وفقهه وعقيدته وحتى في شعر الغزل عنده، ومن لم يستطع التخلي عن ظاهريته حتى في غزله، كان من المنطقي والطبيعي أن يكون في اللغة ومدلولاتها ظاهرياً محضاً، وقد ذكر غير واحد ممن ترجم لابن حزم: "أنه كان يوماً يماشي شيخه وصديقه الإمام ابن عبدالبر النمري فرأى شاباً ظاهره الصلاح؛ فأعجبه! فقال له ابن عبدالبر: لعل ما تحت الثياب ليس هناك: فأنشد ابن حزم قائلاً:

وذي عذل فيمن سباني حسنه يطيل ملامي في الهوى ويقول

(7) طوق الحمامة، ص141.
(8) ابن حزم: طوق الحمامة، ص142.
(9) سير أعلام النبلاء، ج13، ص375.
(10) الأنصاري، جمال الدين بن هشام: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق مازن المبارك، ومحمد علي حمدالله، دار الفكر، ط6، دمشق، 1985م، ص387.
(11) المقري: نفح الطيب، ج4، ص85.
(12) ألبير حبيب مطلق: الحركة اللغوية في الأندلس منذ الفتح حتى نهاية عصر الطوائف، بيروت1965م، ص208.
(13) الفصل في الملل والنحل، ج3، ص3.

جامـعة بنـــغازي
مجلة العلوم والدراسات الإنسانية – المرج
مجلة علمية الكترونية محكمة
رقم الإيداع بدار الكتب الوطنية 284 / 2014 ISSN : 2312 – 4962

أمن أجل وجه لاح لم تر غيره ولم تدر كيف الجسم أنت عليل
فقلت له أسرفت في اللوم فائتد فعندي ردٌّ لو أشاء طويل
أما ترى أني ظاهري وأنني على ما أرى حتى يقوم دليل (14)

نظر ابن حزم إلى اللغة العربية مجرد أداة توضيح وتسهيل على الناس، فأبطل اشتقاق الأسماء كلها عدا أسماء الفاعلين من أفعالهم، وأسماء الموصوفين من صفاتهم؛ كضارب من الضرب، وآكل من الأكل، وأبيض من البياض، وأما سائر الأسماء الواقعة على الأجناس والأنواع كلها، فلا اشتقاق لها أصلاً عنده[15]، كما أبطل العلل النحوية فقال: "وأما النحو فإلى مقدمات محفوظة عن العرب الذين تزيد معرفة تفهمهم للمعاني بلغتهم، وأمّا العلل فيه ففاسدة جداً لا يرجع منها شيء إلى الحقيقة ألبته وأما في العلم فاتخاذها – أي اللغة – وسيلة إيضاح وتقريب أوجب وأوكد، والعلوم النظرية إلى هذا أحوج" [16]، لذا فإن بعض الآفات الداعية إلى البلايا في استعمال الألفاظ اللغوية مرجعها، كما يقول ابن حزم: "إلى تعقيد الترجمة فيها وإيرادها بألفاظ غير عامية ولا فاشية الاستعمال، وليس كل فهم تصلح له كل عبارة فتقربنا إلى الله عز وجل بأن نورد معاني هذه الألفاظ سهلة سبطة، يستوي إن شاء الله في فهمها العامي والخاصي، والعالم والجاهل، حسب إدراكنا.. وكان السبب الذي حدا من سلف إلى إغماض الألفاظ وتوعيرها وتخشين المسلك نحو الشح منها بالعلم والظن به.... إن الحظ لمن آثر العلم وعرف فضله أن يسهله جهده ويقربه بقدر استطاعته، ويخففه ما أمكن"[17].

لا يفهم من كلام ابن حزم التقليل من شأن النحو وتعلمه والأخذ بأدواته، ولكن الذي قصده هو ذم التعمق في علم النحو بما لا منفعة فيه، وقد أوضح ابن حزم مقصده هذا في رسالته مراتب العلوم بقوله: "وأقل ما يجزئ من النحو كتاب: "الواضح" للزبيدي، و"الموجز" لابن السراج.... وأما التعمق في علم النحو ففضول لا منفعة بها هي مشغلة عن الأوكد، ومقطعة دون الأوجب والأهم، وأما الغرض من هذا العلم فهي المخاطبة.. فمن يزيد في هذا العلم إلى إحكام كتاب سيبويه فحسن"[18]، فمن أحسن كتاب سيبويه في النحو فماذا بقي عليه ليستزيد؟!

يُقال أن أجمل لغة كتبت بها الشريعة وضوحاً وإشراقاً هي لغة ابن حزم، يتضح هذا لمن قرأ مسائل الأصول في كتابه "الإحكام"، وقرأها في كتب غيره، فإن طالب العلم لا يستطيع قراءة كتاب في الأصول إلا على أستاذ متخصص يشرح له تراكيبه وألفاظه ومسائله المعقدة، أمّا قارئ "إحكام" ابن حزم فلا يحس أنه يطالع مسائل غريبة عنه أو علماً يحتاج فهمه إلى أستاذ، كذلك الأمر في كتابه: "المحلي بالآثار" الذي يُعدُّ من أعظم كتب الشريعة على الإطلاق يطالعه طالب العلم بسهولة ولذة ومتعة بما أفاض عليه مؤلفه من حيوية وحركة في أسلوبه الجدلي ولغته الجميلة المألوفة، وزاد من سهولة فهمه تعبيره عن المصطلحات بالألفاظ العامة التي يألفها كل أحد، وهذه مثالية في نشر العلم وتسهيله، وهو بذلك ذو مذهب خاص في وضع مصطلحات واضحة مفهومة الدلالة لكل مطلع، وحين لا يعجبه مصطلح ينقده ويقترح غيره. وهذا خير طريق اختاره ابن حزم كوسيلة للتفاهم والتقريب، فلا ينبغي أن يختار من الألفاظ إلا ما يحقق هذا المطلب[19]، وهذا الكلام في اعتقادي فيه تعصب لابن حزم إذ هناك رأى آخر أقوم

(14) ابن خاقان: مطمح الأنفس، ص281؛ ياقوت، معجم الأدباء، ج3، ص1653.
(15) الإحكام في أصول الأحكام، ج46، ص422.
(16) التقريب لحد المنطق، ص157.
(17) التقريب لحد المنطق، ص 14.
(18) مراتب العلوم، ص67.
(19) سعيد الأفغاني: نظرات في اللغة عند ابن حزم، منشورات دار الفكر، ط2، بيروت، 1969م، ص ص42، 43.

رقم الإيداع بدار الكتب الوطنية 284 / 2014 4962 – 2312 : ISSN

قيلاً وهو أن المطالع لكتب ابن حزم على اهميتها إلا أنها تجرئ على العلماء والأئمة دون تورع، وهذا ماأخذه العلماء على ابن حزم قديماً وحديثاً.

وأما كلامه عن البلاغة فقد ضمنه في صفحات من كتابه التقريب ولم يخصص لها مؤلفاً بعينه، فهو يرى أن البلاغة تتحقق بتوفر شرطين أساسيين أولهما: الوضوح، وثانيهما: البراءة من الإخلال والتطويل، فيقول: "البلاغة ما فهمه العامي كفهم الخاصي... وملاك ذلك الاختصار لمن يفهم، والشرح لمن لا يفهم"[20]، ثم يشرع ابن حزم في الحديث عن البلاغة مبيّناً الأسباب المؤدية إلى تعلمها والتمكن من ناصيتها بقوله: "ولابد لمن أراد علم البلاغة من أن يضرب في جميع العلوم بنصيب، وأكثر هذا القرآن والحديث والأخبار وكتب عمر بن بحر، ويكون مع ذلك مطبوعاً فيه وإلا لم يكن بليغاً، والطبع لا ينفع من عدم التوسع في العلوم"[21].

وأما عن الأدب والشعر عند ابن حزم فحظه فيه وافر، جبل على ذلك منذ صغره. فقد مر أن للجواري في قصور أبيه أثراً عظيماً في تكوين ملكته الأدبية والشعرية ؛ فعليهن تلقى أولويات المعارف من قرآن ولغة وأدب وشعر، وفي قصور أبيه كذلك التقى بكبار الأساتذة في قرطبة يجيئون إليه أو يذهب إليهم أساتذة يمثلون كل الرؤى والأفكار[22].

أجاد ابن حزم الشعر وهو في الثانية عشرة من عمره، فقد تحدث في كتابه "الطوق" أن ضنا العامرية كريمة الحاجب المظفر بين المنصور بن أبى عامر اقترحت عليه أن يصنع لها أبياتاً من الشعر، فعرضت عليه أفكارها ليصنع لها لحناً تجعل منه صوتاً يتغنى به، وكان عمره وقتذاك اثنتى عشرة سنة[23].

يعد ابن حزم من صفوة الأدباء الذين أثروا الحركة الأدبية بمؤلفاتهم النفيسة، فإلى جانب علومه في الفقه والكلام، كان أديباً شاعراً قوّى العاطفة، حسن التعبير عما يدور في نفسه، فهو رجل معتد بنفسه، واثق برأيه، مدافع عنه، غزير المعرفة، واسع الثقافة، على دراية بالتاريخ له فيه باع طويل، قادته طبيعته الجريئة أن يتحدث حتى في مواضع لم يجرؤ غيره من الفقهاء على الحديث فيها، فعاطفة الحب مثلاً يفرد لها كتاباً مستقلاً، لم يؤلف مثله في بابه وهو "طوق الحمامة" يتحدث فيه عن تجاربه فى الحب والعشق [24] كعاطفة إنسانية معتمداً في حديثه على التجربة والملاحظة والتحليل النفسي واستخلاص النتائج، تلك الطبيعة الجريئة جعلته يقول ما يعتقد، ويعبر عما يحس دون نفاق أو التواء أو خوف من الناقدين، فهو أصرح من تكلم في هذا الجانب، ساعده في ذلك نشأته الأولى مرفّهاً في بيت وزارة، وسط النساء يطلع على أخبارهن، ويسمع أحاديثهن، ويعرف منهن ما لا يعرفه غيره، فعاش هذه العاطفة بنفسه وسجلها في كتابه: "طوق الحمامة في الألفة والألاف".

لقد اشتهر ابن حزم ببعده عن التكلف في صناعة الأدب والشعر، وإيثاره للبساطة ودقة استعمال الألفاظ، الأمر الذي انعكس على أسلوب ثقافته الدينية والعقلية [25]، لذا فإن شعره قد خلا من التعقيد الذي يهلك المعنى، ومن الغرابة التي توحش اللفظ، ومن الإيهام الذي لا يوصل إلى المراد[26].

(20) التقريب، ص189.
(21) المصدر نفسه، ص195.
(22) الطاهر مكي: دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، ص77.
(23) طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ص78.
(24) محمود إسماعيل: الحب عند ابن حزم الأندلسي وابن داود الأصفهاني، رؤية، ط1، القاهرة، 2006م، ص19.
(25) أحمد هيكل: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، دار المعارف، ط7، القاهرة، 1979م، ص400.
(26) ابن حزم: الديوان، جمع ودراسة وتحقيق صبحي رشاد عبدالكريم، دار الصحابة للتراث، طنطا1990م، ص25.

جامـعة بنـــغازي
مجلة العلوم والدراسات الإنسانية – المرج
مجلة علمية الكترونية محكمة
رقم الإيداع بدار الكتب الوطنية 284 / 2014 ISSN : 2312 – 4962

أما عن آثار ابن حزم الأدبية فأشهرها كتابه: "طوق الحمامة في الألفة والألاف" أي الحب والمحبين، فهو أول تصانيفه وأكثرها شهرة في بابه ألا وهو الحب، وتعدد أسبابه، وتنوع مظاهره وتطوراته[27]، كذلك رسالته الموسومة بـ "فضائل الأندلس وأهلها"، وكان سبب تأليفها كما حكى ابن حزم:" أن ابن الربيب الحسن بن محمد القيراوني بعث برسالة إلى أبي المغيرة عبدالوهاب بن أحمد ابن عم ابن حزم، يعيب فيها على أهل الأندلس تقصيرهم في تخليد علمائهم ومآثر فضائلهم وأخبار ملوكهم" فكتب ابن حزم هذه الرسالة جواباً على رسالة ابن الربيب القيرواني بأسلوب حماسي أدبي باهر؛ افتخر فيه بعلماء بلاده الأندلس مبرزاً فضائلهم ومؤلفاتهم[28]، وقد قال آسين بلاسيوس في حق هذه الرسالة القيمة فيما ينقله عنه بالنثيا "إنها تضم ثبتا بما ألّف الأندلسيون في صنوف الآداب والعلوم وهي في فصول كل منها يدور حول صنف من العلوم والآداب"[29] وعلى خطى رسالة ابن حزم جاءت رسالة ابن سعيد الأندلسي التي تعد تذييلاً لرسالة ابن حزم وفي ذلك يقول ابن سعيد: "رأيت أن أذيل ما ذكره الوزير الحافظ أبومحمد بن حزم من مفاخر أهل الأندلس بما حضرني والله ولي الإعانة" [30]، ثم جاءت بعدها بقرنين رسالة إسماعيل بن محمد الشقندي (ت: سنة 629هـ/ 1231م) لتتم بها تذييل رسالة ابن حزم في فضائل الأندلس[31].

وفيما يخص ملكة ابن حزم في الشعر فهو طويل النفس فيه، والمعاني التي تتردد عنده في الشعر هي نفسها التي تتردد في نثره؛ تقوم على الموازنة بين الأمس والحاضر، ما كان لهم وما ساروا إليه، يتميز شعره بمناجاة الدهر وتمني العودة للماضي، والإكثار من استخدام أداة النداء والطباق بين الألفاظ، بأسلوب بعيد عن التعقيد والغرابة[32]. امتدحه تلميذه الحميدي فقال: "وكان له في الآداب والشعر نفس واسع، وباع طويل، وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه، وشعره كثير"[33].

حظيت أشعار ابن حزم بعناية واسعة من قبل الدارسين في الأدب الأندلسي منها الدراسة التي قدمها الدكتور الطاهر مكي عن كتاب طوق الحمامة [34]. أول كتابات ابن حزم الأدبية والشعرية؛ والتي حوى قرابة السبعمائة بيت من الشعر تكشف بجلاء نفسية ابن حزم وأخلاقه الرفيعة وحبه العفيف الذي ينم عن عاطفة حارة ويكشف بوضوح ما خفي من حياته [35]. فلا يترك قارئه حائراً إذا أراد أن يتحدث عنه[36]. كما خصه الدكتور أحمد هيكل بفصل كامل في كتابه الأدب الأندلسي تناول فيه حياته المتقلبة وما تعرض له من مضايقات، وأبرز سمات شعره مستشهداً بما ورد في الطوق على ذلك[37].

(27) آنخل بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص229.
(28) عبدالحليم عويس، ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث والتاريخي والحضاري، ص ص238، 239.
(29) تاريخ الفكر الأندلسي، ص221.
(30) جمعت الرسائل الثلاثة في كتاب واحد حمل عنوان: فضائل الأندلس وأهلها، وقام بتحقيقها صلاح الدين المنجد، نشرته دار الكتاب الجديد، بيروت، 1968م.
(31) فضائل الأندلس وأهلها، ص ص21، 29، 30.
(32) الطاهر مكي: دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، ط3، دار المعارف، القاهرة، 1987م، ص ص214، 215.
(33) جذوة المقتبس، ص450.
(34) الطاهر مكي: دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، ص182 وما بعدها.
(35) غرسيه غومس: الشعر الأندلسي تطوره وخصائصه، ترجمة حسين مؤنس، منشورات لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، 1952م، ص 29؛ حوليات الجامعة التونسية، العدد التاسع، تونس، 1972، ص 163.
(36) الطاهر مكي: طوق الحمامة، ص225.
(37) الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط الخلافة، ص180.

جامـعة بنـــغازي
مجلة العلوم والدراسات الإنسانية – المرج
مجلة علمية الكترونية محكمة
رقم الإيداع بدار الكتب الوطنية 284 / 2014 ISSN : 2312 – 4962

ألف الإمام ابن حزم ديوانا في الشعر [38]. تناول فيه موضوعات عدة ابتدأه بقصيدة من ثمانين بيتا تحدث فيها عن نعم الله عليه، ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم كما حوت قصيدته على مواعظ وعبر جاء في مطلعها:

لك الحمد يا رب والشكر تم — لك الحمد ما باح بالشكر فَمْ

لك الحمد في كل ما حالة — فقد خصني منك فضل وعم [39]

ومما اشتهر في ديوان ابن حزم قصيدته التي رد فيها على نقفور "الدمستق" ملك الأرمن، وكان الأخير قد بعث بقصيدة إلى الخليفة العباسي المطيع (334- 363هـ/947-973م) يفتخر بمجده وانتصاراته واستباحته لبلاد المسلمين والسخرية من الإسلام وأهله جاء في مطلعها:

من الملك الظهر المسيحي مألكاً — إلى خلف الأملاك من آل هاشم

إلى الملك الفضل المطيع أخي العلا — ومن يرتجي للمعضلات العظائم

إذا سمعت أذناك ما أنا صانع — بلى قد أتاك الوهن من فعل حازم [40]

إلى أن قال:

سأفتح أرض الله شرقا ومغرباً — وأنشر دين الصلب نشر الغمائم [41]

وما أن وقف الإمام ابن حزم على هذه القصيدة حتى أخذته الحمية على دينه ووطنه دولة الإسلام، فرد عليها بقصيدة افتتحها بقوله:

من المحتمي لله رب العوالم — ودين رسول الله من آل هاشم

محمد الهادي إلى الناس بالتقى — وبالرشد والإسلام أفضل قادم

عليه من الله السلام مرددا — إلى أن يوافي البيت كل العوالم

إلى قائل بالإفك جهلاً وضلة — عن التقفور المضرّي في الأعاجم

دهته الدواهي في خلافته كما — دهت قبله الأملاك دهم الدواهم

ويختم ابن حزم قصيدته بقوله:

أتيتم بشعر بادر متخاذل — ضعيف معاني النظم جمّ البلاغم

فدونكم كالعقد فيه زمردٌ — ودرّ وياقوت بإحكام حاكم [42]

وقد نقلت بعض كتب التراجم تسمية لهذه القصيدة باسم الفريدة الإسلامية، فهذا ابن كثير الدمشقي ينقل عن ابن عساكر قوله: "قال أبو محمد عبدالله بن محمد الفرغاني صاحب كتاب

(38) قام بتحقيقه صبحي رشاد عبدالكريم ونشرته دار الصحابة بطنطا، سنة1990م.
(39) ابن حزم: الديوان، ص38.
(40) نفسه، ص43.
(41) نفسه، ص49.
(42) ابن حزم،الديوان، ص ص54-62.

جامـعة بنـــغازي
مجلة العلوم والدراسات الإنسانية – المرج
مجلة علمية الكترونية محكمة
رقم الإيداع بدار الكتب الوطنية 284 / 2014 ISSN : 2312 – 4962

صلة الصلة: وها أنا أذكر القصيدة الأرمينية المخذولة الملعونة، وأتبعها بالفريدة الإسلامية المنصورة الميمونة"[43].

ولابن حزم قصائد أخرى غير ما في الديوان منها رثاؤه لقرطبة عند خروجه منها إبان فتنة البربر والتي قُسم له أن يراها تسقط أمام عينيه، كما كتب له أن يشارك في بعض تلك الأحداث التي جرت قبيل سقوطها وأن يتأثر بها وتؤثر فيه فقال:

فيا دار لم يقفرك منا اختيارنا ولو أننا نستطيع كنت لنا قبرا
ولكن أقدارا من الله أنفذت تدمرنا طوعا لما حل أو قهرا
ويا دهر بلغ ساكنيها تحيتي ولو ساكنوا المروين أو جاوزوا النهرا
فصبرا لسطو الدهر فيهم وحكمه وإن كان طعم الصبر مستثقلاً مرا[44]

وله كذلك قصيدة يخاطب بها قاضي الجماعة بقرطبة عبدالرحمن بن أحمد بن بشير يفخر فيها بالعلم جاء في مطلعها:

أنا الشمس في جو العلوم منيرة ولكن عيبي أن مطلعي الغرب
ولو أنني من جانب الشرق طالع لجدّ على ما ضاع من ذكرى النهب [45]

ومن شعره أيضا قوله:

مناتي من الدنيا علوم أبثها وأنشرها في كل بادٍ وحاضر
دعاء إلى القرآن والسنن التي تناسي رجال ذكرها في المحاضر [46]

ومن شعره كذلك أبيات قالها قبيل وفاته ينعي فيها نفسه قائلاً:

كأنك بالزوار لي قد تبادروا وقيل لهم أودي على بن أحمد
فيا رب محزون هناك وضاحك وكم أدمع تزري وخد محدد
عفا الله عني يوم أرحل ظاعناً عن الأهل محمولا إلى ضيق ملحد
وأترك ما قد كنت مغتبطا به وألقي الذي آنست منه بمرصد
فواراحتى إن كان زادي مقدما ويا نصبي إن كنت لم أتزود [47]

هذه بعض أطراف الحديث عن آثار الإمام ابن حزم الظاهري اللغوية والأدبية نقلها معه أينما حل وارتحل، واحد في عصره، فريد في تفكيره، يصدق عليه قول ابن بسام فيما ينقله عن أبي حيان مؤرخ الأندلسي: "ويا لبدائع هذا الحبر على بن حزم وغرره، ما أوضحنا على كثرة الدافنين لها والطامسين لمحاسنها، وعلى ذلك فليس ببدع فيما أضيع منه، فأزهد الناس في عالم

(43) البداية والنهاية: ج11، ص ص 278-286.
(44) الطاهر مكي: دراسات أندلسية، ص214.
(45) الحميدي: جذوة المقتبس، ص451؛ إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي "عصر الطوائف والمرابطين"، دار الشروق، عمان، 1997م، ص 373.
(46) الحميدي: نفس المصدر والصفحة؛ ابن بشكوال، الصلة2، ص 334.
(47) ياقوت: معجم الأدباء، 4، ص 1658.

جامـعة بنـــغازي
مجلة العلوم والدراسات الإنسانية – المرج
مجلة علمية الكترونية محكمة
رقم الإيداع بدار الكتب الوطنية 284 / 2014 ISSN : 2312 – 4962

أهله، وقبله رزئ العلماء بتزهدهم على من يقصر عنهم، والحسد داء لا دواء له" [48]. كما يصدق فيه كذلك كلام ابن خاقان حيث قال: "ولابن حزم في الأدب سبق لا ينكر وبديهة لا يعلم أنه روى فيها ولا فكر، وقد أثبتت من شعره ما يُعلم أنه أوحد" [49]، وأثنى عليه سعيد الأفغاني بقوله"شاعر فحل مطبوع ، قبل أن يكون فقيها، وقبل أن يكون عالما، والأدب هبته الأصلية،والعلم طارئ عليه، ولم يؤثر فيه من الناحية الشعرية...طبع العلوم والدين والجدل والتأليف بالطابع الأدبي الجميل، وإنه على كل حال من بلغاء الأندلس شعرا ونثرا" [50]، وقد أخطأ من قال إن ابن حزم لم يجد الشعر لأنه كان يقوله على البديهة، وإنه غير دقيق في اختيار الألفاظ ذات الموقع الجميل على النفس لتأثره بالفقه والحديث والجدل[51].

2 - ابن سيده المرسي:

ومن رواد النهضة العلمية أيضاً في علوم اللغة وآدابها في دانية والجزائر الشرقية **ابن سيده المرسي: (458هـ/1065م)** وهو أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي الضرير، ترجم له كثيرون وأجمعوا على أن اسمه علي في حين اختلفوا في اسم أبيه، فذكر صاعد وتبعه القفطي أن اسم أبيه إسماعيل [52]. في حين قال الحميدي أن اسم أبيه أحمد[53]. وذكر السيوطي هذا الخلاف إلا أنه لما ترجم لأبيه ترجم له بإسماعيل [54]، وبما أن صاعداً الأندلسي أقدم من ترجم لابن سيده، فإن كلامه أقرب ما يكون للصواب وهو ما اعتمدته.

ولد ابن سيده في مدينة مرسيه شرق الأندلس سنة (348هـ)، وكان ضريراً حتى أن ما يترجم له يقول: ابن سيده الأعمى كما في المغرب[55]. أو ابن سيده الضرير كما في السير [56]. والبغية[57].

نشأ ابن سيده في بيئة علمية ساهمت في تكوينه العلمي وأثرت فيه بشكل كبير فأبوه إسماعيل وهو أيضا ضرير البصر من أشهر المشتغلين باللغة وآدابها في مرسية كان قد لقي أبا بكر الزبيدي عالم اللغة في وقته وأخذ عنه مختصر العين ولازمه حتى صار من أعلام عصره قال عنه السيوطي: "إسماعيل بن سيده الأديب الضرير والد مصنف المحكم، أخذ عن أبي بكر الزبيدي، وكان من النحاة ومن أهل المعرفة والذكاء[58]. فتتلمذ ابن سيده أول ما تتلمذ على أبيه، وعنه أخذ علوم اللغة وفنونها، فكان والده بمثابة المدرسة الأولى التي تلقى فيها دروسه، وهي بطبيعة الحال مدرسة الزبيدي الأصيلة في الدراسات اللغوية ذات الموروث المشرقي، أساتذتها وعمداؤها ابن درستويه، والزجاج، والأخفش، وابن نفطويه، وابن دريد صاحب الجمهرة، وابن الأنباري، وأبوعلي الفارسي، وأبوعلى القالي، وكل عالم من هؤلاء مدرسة لها طابعها ونشاطها أثرت على اتجاه ابن سيده في دراساته اللغوية والنحوية فيما بعد[59].

(48) الذخيرة: القسم الأول، 1، ص 172.
(49) مطمح الأنفس، ص 106.
(50) ابن حزم: رسالة في المفاضلة بين الصحابة، تحقيق سعيد الأفغاني، المطبعة الهاشمية، دمشق1940م، ص157.
(51) إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، دار الثقافة، بيروت1960م، ص285.
(52) طبقات الأمم: ص99؛ إنباه الرواة، ج 2، ص 143.
(53) جذوة المقتبس، ص 452.
(54) بغية الوعاة، ج 2، ص 225.
(55) ابن سعيد، ج 2، ص 239.
(56) الذهبي، ج18، ص 144.
(57) الضبي، ص 327.
(58) بغية الوعاة، ج1، ص 448.
(59) ابن سيده: المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق عبدالحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت2000م، ج1، ص13.

رقم الإيداع بدار الكتب الوطنية 284 / 2014 ISSN : 2312 – 4962

تتلمذ ابن سيده على نخبة من علماء الأندلس ممن وفدوا إلى بلدة مرسية أمثال أبي عمر الطلمنكي المحدث المقرئ، فقد أورد صاحب السير رواية عن الطلمنكي نفسه أبان دخوله مرسية جاء فيها: "قال أبو عمر الطلمنكي: دخلت مرسية فتشبت بي أهلها ليسمعوا على غريب المصنف، فقلت انظروا من يقرأ لكم وأمسك أنا كتابي، فأتوني بإنسان أعمى يُعرف بابن سيده، فقرأه كله، فعجبت من حفظه وكان أعمى ابن أعمى" [60]. كما روى ابن سيده علي صاعد بن الحسن البغدادي النحوي الوافد إلى الأندلس زمن المنصور بن أبي عامر، فأخذ عنه ابن سيده كتاب الفصوص في اللغة[61].

كان لوالد ابن سيده عظيم الأثر في وجهة ابنه العلمية نحو علوم اللغة وآدابها فإليه يرجع الفضل في تأديبه وتعليمه منذ صغره، فتأثر بمدرسة أبيه المشرقية، فجاءت مؤلفاته محاكاة لكتب المشارقة اللغوية كما سيتضح في موضعه[62]. ومما أُخِذ عليه أنه شعوبي محترق.

درس علي بن سيده كتب المتأخرين من أهل اللغة ومنها استقى موروثه العلمي، وقد نص على ذكرهم في مقدمة كتابيه – المحكم والمخصص – أمثال الخليل بن أحمد، وسيبويه والمبرد والفراء، والأصمعي، وابن جني، وأبي علي الفارسي أكثر أهل اللغة أثراً على ابن سيده وغيرهم كثير[63].

انتقل علي بن سيده إلى مملكة دانية بدعوة من أميرها مجاهد العامري الذي أوكل إليه مهمة تأديب أبنائه، فحظى بمنزلة عظيمة عنده حُسد عليها، حتى أن مجاهداً العامري كان يباهي به ملوك الطوائف[64]، فبدأ ابن سيده نشاطه العلمي في مجال التأليف والتصنيف في مملكة دانية يدعمه أميرها مجاهد العامري المعروف ببذله لكل نفيس في سبيل دفع الحركة العلمية في مملكته، فإلى مجاهد يرجع الفضل في تصنيف ابن سيده كتابي **المخصص والمحكم** ، فقد طلب من ابن سيده أن يضع له معجما في اللغة جامعا لما سبقه من معاجم ومتداركا لما أصابها من خطأ ونقص، فوضع له ابن سيده كتابه **المخصص** جعله على نهج غريب المصنف لأبي عبيد، فكان كما طلب مجاهد موسوعة شاملة في بابه لما امتاز به من اطلاع على كل ما ألف قبله من معاجم، كما امتاز بحسن تبويبه وإحكام منهجه [65]. وفي ذلك يقول ابن سيده في مقدمة كتابه **المحكم**: "ثم أنه عاقه عن التصنيف – أي مجاهد – فيها ما نيط به من علائق السياسة وأعباء الرياسة وشغله عن ذلك ما جيء به من إرادته الممالك وتأمينه المسالك وخوضه لقواميس الجيوش المهالك... فأمرني بالتجرد لهذه الإرادة وكساني بذلك ثوب التنويه والإشادة، وأراني كيف أملك عنان الحقيقة ومن أي المآتي أسلك متان الطريقة... وألّفت كتابي الملخص الذي اسميته **بالمخصص** ، وهو على التبويب في نهاية التهذيب" [66]، وما أن خلص ابن سيده من تأليف المخصص حتى أمره مجاهد أن يضع له كتابا آخر في اللغة يجعله على حروف المعجم بدلا من جعله على الأبواب كما في المخصص، فوضع له ابن سيده كتاب "المحكم والمحيط الأعظم" على غرار كتاب العين للفراهيدي، أوضح ذلك ابن سيده بقوله: "ثم أمرني بالتأليف على حروف المعجم، فصنفت كتابي الموسوم بالمحكم"[67]. وكلام ابن سيده يدل دلالة واضحة أن مجاهداً العامري كان على جانب كبير من العلم باللغة ومعانيها وألفاظها، حتى أنه عُرف

(60) الذهبي: ج18، ص144.
(61) ابن كثير: البداية والنهاية، ج12، ص21.
(62) ألبير مطلق: الحركة اللغوية في الأندلس، ص269.
(63) المحكم، ج1، ص 47؛ المخصص ،ج12، ص13.
(64) السيوطي: بغية الدعاة، ج2، ص143.
(65) فاديا حسكه: أثر أبي علي الفارسي في جهود ابن سيده النحوية، مجلة التراث العربي، العدد83، دمشق، 2001م، ص 279.
(66) المحكم، ج1، ص 34.
(67) نفس المصدر والصفحة.

رقم الإيداع بدار الكتب الوطنية 284 / 2014 ISSN : 2312 – 4962

عليه نقده الشديد للشعر وإدراكه لعيوب المصنفات اللغوية التي سبقت تصانيف ابن سيده[68]، لذا فقد اختار ابن سيده دون سواه لعلمه بتمكنه من ناصية اللغة وعلومها؛ كي يصنف له كتابا جامعا في اللغة يجمع كلام من تقدم من أئمتها الثقات فجاء المخصص والمحكم كما تمنى وأراد مجاهد العامري.

امتاز **المحكم والمخصص** الذين ألفهما ابن سيده لمجاهد بالإحاطة بمفردات اللغة ومعرفة دلالاتها المختلفة وجمع المتناثر منها، كما أنها جاءت شاملة لكل ما ألّف قبلهما من معاجم، متأثرة بها في نسقها وتركيبها [69]. مضيفا إليها مادة النحو والصرف وهو ما افتقرت إليه ما سبقها من معاجم، يقول ابن سيده: "إني رأيت جميع من مدّ إلي تألفيها يدا وأعمل في توطئتها وتصنيفها منهم ذهنا وجلدا قد حُرموا الارتياض بصناعة الإعراب ولم يرفع الزمن عنهم ما أسدل عليهم من كثيف ذلك الحجاب.." [70].

ولابن سيده مصنفات أخرى في اللغة غير المحكم والمخصص منها: "**الإيضاح والإفصاح في شرح كتاب سيبويه** " و "**شاذ اللغة** "[71]. و"**تقريب غريب المصنف**" [72]. و"**شرح كتاب الأخفش** "[73]. وغيرها من الكتب التي ساهمت في إثراء الحركة اللغوية في دانية والجزائر الشرقية.

أثنى ابن سيده على مجاهد العامري في أغلب مصنفاته اللغوية معددا فضائله وما أولاه إياه من رعاية واهتمام ويتضح ذلك جليا من خلال مقدمات كتابية المحكم والمخصص، الأمر الذي جعل كثيراً ممن هم حول مجاهد العامري يحسدونه على مكانته ومنزلته من مجاهد وهو ما كان يخشاه ابن سيده، وما أن توفى مجاهد العامري، حتى قام الواشون بتأليب علي إقبال الدولة ابن مجاهد عليه بحجة أن ابن سيده وقف مع أخ إقبال الدولة المسمى حسن سعد الدولة لولاية العهد، فخاف ابن سيده على نفسه ولجأ إلى بعض الأعمال المجاورة لدانية، وأرسل إلى إقبال الدولة قصيدة يستعطفه فيها فعفا إقبال الدولة عنه[74].

رجع ابن سيده للإقامة بدانية، إلا أن المدة التي قضاها فيها بعد وفاة سيده مجاهد لم تشهد أي حراك علمي يسجل له، فكل أعماله العلمية تمت في عهد مجاهد العامري، وهي التي أشار إليها في كتابيه المحكم والمخصص، ولعل هذا شيء طبيعي فالنفس تجود بمكنونها مع الرغبة والرضا، ولما حدثت الجفوة بينه وبين إقبال الدولة خمدت جذوة علمه، ولم يسجل التاريخ شيئا من أعماله في عهد إقبال الدولة.

ولابن سيده كذلك اشتغال بالشعر وله فيه مصنفات منها: "**شرح مشكل المتنبي**" شرح فيه الألفاظ المستعصية التي تضمنها شعر المتنبي وأبدى في ذلك براعة في معرفة معاني الألفاظ وحل غموضها وتوضيح معانيها بطريقة تنم على سعة علمه [75]. وله أيضا " **الوافي في علم القوافي**"[76]. **والأرجوزة** المسماة "**ما اسمك يا أخا العرب** " والتي صور فيها ابن سيده صورة

(68) ابن بسام: الذخيرة، القسم الثالث،ج1، ص 23؛ ابن عذاري: البيان المغرب،ج3 ص 155.
(69) القلقشندي: صبح الأعشى، ج1، ص 468؛ شكيب أرسلان: الحلل السندسية، ج3، ص 464؛ محمد عنان: دول الطوائف، ج 3، ص 434.
(70) المخصص، ج1، ص 36.
(71) ياقوت: معجم الأدباء، ج4، ص ص 1648، 1649.
(72) أحمد بن يوسف اللّبلي: تحفة المجد الصريح في شرح كتاب الفصيح، تحقيق عبدالملك بن عيضة الثبيتي، منشورات مكتبة الآداب، القاهرة، 1997م، ص 4.
(73) ياقوت: نفسه، ج 4، ص 1649.
(74) ابن سيده: المحكم،ج 1، ص 14، هيفاء عبدالحميد: نظرية الحقول الدلالية"دراسة تطبيقية في المخصص لابن سيده" رسالة دكتوراه، مخطوطة، جامعة أم القرى، 2001م، ص 129.
(75) سعد البشري: الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس، ص260.
(76) ياقوت: معجم الأدباء،ج4، ص 1648.

جامـعة بنـــغازي
مجلة العلوم والدراسات الإنسانية – المرج
مجلة علمية الكترونية محكمة
رقم الإيداع بدار الكتب الوطنية 284 / 2014 4962 – 2312 : ISSN

خيالية لنفر من أهل المشرق قادهم الاغتراب إلى المغرب فسألهم الناس عن أنسابهم وبلدانهم ومراكبهم ومآكلهم، فصور ابن سيده إجابة كل واحد منهم في قصيدة، مرتبا إيّاها على حروف المعجم افتتحها بقوله:

الحمد لله الذي بحمده يدوم ما خوّلنا من عنده
ثم صلاتي كل يوم وغد على السراج المستنير أحمد
نحن ركيب من رجال المشرق أكارم الأنفس لدُّ المنطق
مالت بنا الأيام نحو المغرب مهما يشرق كوكب نغرب (77)

وفي هذه الأرجوزة كذلك يعرض ابن سيده شيوخه الذين درس عليهم والكتب التي درسها، وصلته بأمير دانية مجاهد العامري وصحبته إياه فيقول:

صحبت خير ملك مجاهد وكان في جمع العلوم جاهد
ولم أزل بشغله سميرا فما أفدت عنده قطميرا (78)

ومن أشهر قصائد ابن سيده الشعرية تلك التي بعث بها لإقبال الدولة يستعطفه ويسترضيه فيها، جاء في أولها:

صحيت فهل في برد ظنك نومة لذى كبد حرّي وذي مقلة وسنا
هجان نأي أهلوه عنه وشفّه قراف فأمسى لا يدسّ ولا يهنا
فيا ملك الأملاك إني مُحوّمٌ على الورد لا عنه أذاد ولا أدنى
تحيفني دهري وأقبلت شاكيا إليك أمأذون لعبدك أم يُثنى

ويختمها بقوله:

إذا قتلة أرضتك عنا فهاتها حبيب إلينا ما رضيت به عنا (79)

أما قصيدته الأخرى لإقبال الدولة العامري فكان مطلعها:

لا تضجرن فما سواك مؤمل ولديك يحسن للكرام تذللُ
وإذا السحاب أتت يواصل درها فمن الذي في الري عنها يسأل
أنت الذي عودتنا طلب المني لازلت تعلم في العلا ما يجهل (80)

ولابن سيده مصنفات في الشعر وهي عبارة عن شروحات لكتب مشاهير من صنف في الشعر وفنونه منها: **شرح أبيات الجمل للزجاجي. والأنيق في شرح الحماسة لأبي تمام**[81]. كل

(77) حبيب الزيات: أرجوزة ابن سيده صاحب المخصص في اللغة، مجلة الشرق، العدد36، دمشق، 1938م، ص ص 181-191.
(78) حبيب الزيات: أرجوزة ابن سيده، ص185.
(79) الحميدي: جذوة المقتبس، ص453؛ ياقوت: معجم الأدباء، ج4، ص 1650.
(80) عبدالقادر البغدادي: خزانة الأدب، ج3، ص 191؛ الصفدي، نكت الهيمان، ص204.
(81) صاعد: طبقات الأمم، ص99؛ ابن بشكوال: الصلة، ج2، ص 335.

جامـعة بنـــغازي
مجلة العلوم والدراسات الإنسانية – المرج
مجلة علمية الكترونية محكمة
رقم الإيداع بدار الكتب الوطنية 284 / 2014 ISSN : 2312 – 4962

ذلك يدل على سعة علمه في الشعر وفنونه إلا أنه في علوم اللغة من نحو وصرف أوسع دائرة لذلك اشتهر بابن سيده النحوي [82]. ولابن سيده كذلك عناية بالفلسفة والمنطق والجدل – كما سيتضح في موضعه – وهي علوم لا غنى عنها للأديب واللغوي وذات صلة قوية بالدراسات اللغوية والأدبية[83]، وهكذا قضى ابن سيده بقية حياته في دانية حتى أدركته منيته سنة 458هـ-1066م[84].

كان ابن سيده وليد عصره وبيئته رغم الاضطرابات السياسية والفتن والقلاقل والمؤامرات التي اتسم بها عصره، فهو نتاج للغرس العلمي الذي انبته ولاة بني أمية وخلفاؤهم بالأندلس والظروف الاجتماعية المحيطة به والتي ساهمت في نبوغه وإثراء مواهبه الشخصية، فهو مدين بعلمه ونبوغه إلى كل هذه العوامل والمؤثرات التي أحاطت به والتي ورثها عن عصره وبيئته.

لقد شهدت كتب التراجم والسير التي أرخت لهذا العالم اللغوي بالأثر الكبير الذي أحدثه في مضمار الدراسات اللغوية والنحوية، فكل الكتب اللغوية التي ألفت بعده تستمد مواردها منه، فمثلا لسان العرب لابن منظور يعتمد في مجمله على كتب ابن سيده الجامعة لكل الكتب اللغوية التي سبقتها- فتأثر ابن سيده وأثر- تأثر بمن سبقه معترفا لهم بالفضل والسبق، وأثر فيمن لحقه معترفين له بالأصالة والدقة، فهذا صاعد الأندلسي يثني عليه بقوله: "وهو أعلم الأندلس قاطبة بالنحو واللغة والأشعار وأحفظهم لذلك" [85]. وقال عنه ابن سعيد المغربي: "لا يعلم بالأندلس أشد اعتناء من هذا الرجل باللغة ولا أعظم تواليف، تفخر مرسيه به أعظم فخر، طرزت به برد الدهر، وهو عندي فوق أن يوصف بحافظ أو عالم" [86]. ووصفه السيوطي بقوله: "لم يكن في زمانه أعلم منه بالنحو واللغة والأشعار وأيام العرب وما يتعلق بها متوفرا على علوم الحكمة"[87].

الخاتمة

خلاصة القول فإن لهذا العصر ألا وهو عصر الطوائف عصر النهضة العلمية والفكرية خصائصه الفارقة من الناحية السياسية فمن ناحية سياسية عصر تفرق وفتنة ، ومن ناحية علمية عصر التطور والازدهار، ومن ناحية أخرى وجدت عوامل أخرى محلية أثرت في توجيه الحركة اللغوية والأدبية في هذا العصر وجهتها التي سارت فيها، بالإضافة إلى ما كان هنالك من عوامل تقليدية من رحلة إلى المشرق، وهجرة للمشارقة والكتب الشرقية إلى الأندلس ،وحلقات للتدريس و المناظرة، وتشجيع علي التأليف ، فالبيئة اللغوية الخصبةالتي أوجدها أبوعلي القالي وتلامذته، وكان لابد لها أن تأتي ثمرتها في هذا العصر الذي أتحدث عنه، فما كنا لنرى رسوخ الدقة اللغوية، واعتماد الأصول واتساع مجال الثقافة اللغوية، لولا تلك الحركة التي أثارها القالي بشخصيته، وتعليمه، والكتب التي هاجر بها والتلاميذ الذين تخرجوا علي يديه، هذا بالإضافة إلى تعدد المراكز الثقافية علي أصول الانقسام السياسي الذي عاشته الأندلس عقب سقوط الخلافة، بحيث أصبحت كل دولة من دول الطوائف مركزاً من مراكز الأدب والعلم، واتصل هذا العامل بطبيعة أمراء الطوائف أنفسهم فقد كان الأمير هو الراعي الأول للحركة

(82) ابن خاقان: مطمح الأنفس، ص291؛ ابن سعيد: المغرب، ج2، ص 259.
(83) ياقوت: معجم الأدباء، ج4، ص 1649؛ الصفدي، نكت الهيمان، ص204.
(84) ياقوت: المصدر نفسه، ج4، ص 1648.
(85) طبقات الأمم: ص99.
(86) المغرب في حلى المغرب،ج2، ص260.
(87) بغية الوعاة: ج2، ص 143.

رقم الإيداع بدار الكتب الوطنية 284 / 2014 ISSN : 2312 – 4962

العلمية في الأندلس، وكان لون هذه الحركة يسير حسب ميول ذلك الأمير، فكانت المباهاة بجمع أكبر عدد من العلماء المشهورين في مختلف العلوم من فقه وحديث ولغة هي سمة البلاط العامري في دانية والجزائر الشرقية، كما أن القلق السياسي الذي كانت تعيشه الأندلس عقب الفتنة جعل كثيرا من العلماء يطلبون رزقهم بالتنقل بين بلاطات الأمراء بما في ذلك علماء اللغة والأدب وكثيراً مايتم هذا التنقل عن طريق استدعاء أمراء البلاطات لهم اعتمادا على شهرتهم، وحبا في الاستئثار بالمشهورين منهم كما جرى مع ابن سيده وابن حزم وغيرهم الذين ساهموا بدور كبير في تطور علوم اللغة العربية وازدهارها في الأندلس ذلك الوقت.